

الفصل الثالث
الصراع بين الوجود و العدم

أسئلة تراود كل نفس، ما موقع الإنسان من الكون؟ أهو قطرة ضائعة في خضم الموجودات، أم هو غاية الوجود؟ وما حقيقة الوجود؟ وكيف بدأ؟ وكيف جننا؟ وإلى أين نمضي؟ وماذا بعد؟ وقبل أن يجيب عنها الإنسان يتلمس وسائله للمعرفة في الحياة.... إلى أي مدى يثق الإنسان بحواسه؟ وهل معطياتها مصدر للحقيقة؟ هل ما نراه ونحسه هو الموجود، أما العدم فيبتدى حيث تنتهي طاقات حواسنا،... أو أن الوجود يتخطى الحواس؟ وإذا كان ذلك فبأي الوسائل نتعرف إليه؟(1)

(انتشرت الوجودية في الغرب وتشعبت آراء الفلاسفة حول أصل العالم، وإلى جانبها الآثار الأدبية القديمة...ومن آرائهم مثلاً يرى مذهب طاليس أن أصل العالم الماء، وهيرقليطس يرى أن أصل العالم النار فهي المبدأ الأول للوجود، والفيثاغورثيون يقولون إن أصل العالم هو العدد، والفلاسفة الذريون ومن أشهرهم ديمقراطيس يرون أن أصل العالم هو الذرة ويفسرون الكون والفساد في هذا الوجود)(2).

الفلسفة الوجودية هي تلك الفلسفة الفردية التي تهتم بتناقض العلم وموضوعاتها خارجة عن إطار المعطيات العلمية، ولاتهتم بالتناقضات الواقعية الاجتماعية، ووقفت الوجودية ضد العقل وأعطت الأولوية لوجود الإنسان، وإدراكه للعالم من خلال وجوده، زمن مبادئها الأساسية (أنا أفكر إذن أنا موجود)، فهي فلسفة الوجود، وتهتم بالوجود الشخصي للفرد الذي يعاني في صراعه مع الوجود من خلال تجاربه في الحياة، وأنكر سارتر المادية وعالم المثل والقيم الأخلاقية المتوارثة، ونادى بالتححرر من قيم الماضي وتراثه، ودعا إلى الحرية المطلقة، والوجود والعدم كانا من البداية كالحقيقة والمرأة.... الحقيقة الفاعلة والمرأة قابلة ناقلة ولكنها سالبة لاتضيف من عندها شيئاً ولاتقدر بذاتها على شيء سوى أن يظهر فيها الأمر على ما هو عليه(3).

1 - ينظر التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص78.
2 - أدب المهجر، د.صابر عبدالدايم، ص185.
3 - ينظر الوجود والعدم، د. مصطفى محمود، ص62.

(وتدور موضوعات الوجوديين حول الاغتراب واليأس والموت، أما العدم في المذهب الوجودي عند هيدجر: فالذي يكشف عن العدم في مذهبه هو الحالة العاطفية المعروفة بالقلق)⁽¹⁾، وقد انعكس الفكر الوجودي في الأدب أيضاً.

وقد حُدِّت عبارة الوجود التي قالها باركلي وهي: (الوجود هو كون الشيء مدرِّكاً)، لكنه نعت (النوئيمًا) * بأنها غير واقعية وقال إن (وجودها هو إدراك)⁽²⁾.

(لكن هيجل يكتب عن (الوجود و العدم) أنهما تجريدان خاويان، وأحدهما خاوي كالأخر، ينسى أن الخاوي خاوي من شيء ما، لكن اللاوجود خاوي من الوجود، وبالجملة، فما ينبغي أن نذكره هنا ضد هيجل هو أن الوجود هو وأن العدم ليس هو)⁽³⁾.

أما الدكتور مصطفى محمود في كتابه الوجود والعدم فيقول: (فالعدم ليس معدوماً وإنما له كينونة من نوع ما، والفرق بين كينونة الوجود والعدم كالفرق بين الموجب والسالب.... والفرق بين النور والظلمة)⁽⁴⁾.

وقد كانت الوجودية عند مثقفي العرب تنافس الماركسية، فقد تبناها فكرياً، إذ اتصلت الظروف السائدة في العالم العربي اتصل بالواقع الذي أفرز مذهباً للتحرر السياسي والاقتصادي والثقافي، وإذا تعمقنا أكثر ونظرنا إلى الشعر، فسندرى أن الوجودية أقرب الفلسفات إلى الشعر، والشعر أقرب الفنون إلى الوجودية.

يقول الدكتور عبدالرحمن بدوي في كتابه (الإنسانية والوجودية في الفكر العربي): (فالشعر والفلسفة صورتان للتعبير عن الوجود: إحداهما للتعبير عن الإمكان، والأخرى للتعبير عن الآنية، والوجود إمكان وآنية معاً، ولهذا كان الشعر والفلسفة متكاملين، ولاغنى للواحد عن الآخر)⁽⁵⁾.

1 - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، د. عبدالرحمن بدوي، ص 89.
*النوئيم Noeme: المدرك فكرياً؛ وفي فلسفة الظاهريات هي مضمون الفكرة في مقابل فعل الفكر. ينظر الوجود والعدم، بحث في أنطولوجيا الظاهرية، جان بول سارتر، ترجمة د. عبدالرحمن بدوي، ص 20 منشورات دار الآداب- بيروت، الطبعة الأولى، 1960.

2 - الوجود و العدم، جان بول سارتر، أنطولوجيا الظاهرية، ترجمة د. عبدالرحمن بدوي، ص 21.

3 - السابق، ص 67.

4 - الوجود والعدم، د. مصطفى محمود، ص 38.

5 - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، د. عبدالرحمن بدوي، ص 113.

لقد اختلفت فكرة الوجود عند الشاعر القديم عن الشاعر المهجري، فقد كان عند القدماء مجرد تناول حسي، أما عند شعراء المهجر فيحسون بالوجود إحساساً كلياً شاملاً، لأنهم يلتقونه من خلال وجدانهم، ويضمونه بين جوانحهم⁽¹⁾.

وأدباء المهجر لم يعنوا بالبحث الفلسفي قدر ما عنوا بالتأمل في مشاهد الوجود، فهم لم يبحثوا في أصل الوجود مثل الفلاسفة، إلا أنهم بهروا بما حولهم وتأملوا في كل شيء وحاولوا كشف الأسرار العميقة، وضحوا بما يملكون من ثروتهم الروحية ووجدانهم الصافي العميق.

وعلى غرار ذلك يقول الدكتور عبدالرحمن بدوي: (إن الشاعر يخلق عالماً من الوجود قائماً بذاته، ويملك قدر ما يملك عالم الفيلسوف في نظر صاحبه، بل لعل الشعور عند الأول أقوى منه عند الفيلسوف)⁽²⁾.

ويمثل الشعر المهجري الصراع المتردد بين هاتين النزعتين، وتتمثلان في النزعة الإنسانية الصرفة في الإيمان بالتجدد والعدم المطلق⁽³⁾، وقد قسمها الدكتور صابر عبدالدايم في كتابه أدب المهجر إلى:

1- وحدة الوجود.

2- تناسخ الأرواح*.

3- الثنائية⁽⁴⁾.

لقد اعتد جبران بالخيال إلى حد أنه كان يجسد له مخلوقات وهمية، تقاسمه مسرات الحياة وآلامها، ولقد قال عن الخيال، على لسان إحدى بطولاته: (ما أجهل من أن يتخيل أمراً ويتصوره بشكله ومعالمه، وعندما يستحيل عليه اثباته بالمقاييس السطحية، والبراهين اللفظية، يحسب الخيال وهماً، والتصور شيئاً فراغاً، ولكن لو تعمق قليلاً وتأمل هنيئة، لعلم أن الخيال حقيقة لم تتحجر بعد، وأن التصور معرفة أسمى من أن تتقيد بسلاسل المقاييس، وأعلى وأرحب من أن تسجن بأقفاص الألفاظ)⁽⁵⁾.

1 - ينظر الطبيعة في الشعر المهجر، د. أنس داود، ص32.

2 - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، د. عبدالرحمن بدوي، ص117.

3 - ينظر الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. نجم يوسف، ص104.

* يعني التناسخ انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدنٍ آخر، أو رجوع الروح إلى الحياة بجسد آخر هي فكرة فلسفية ودينية وعلمية مرتبطة بالجسد والروح والذات، (راجع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

4 - ينظر كتاب أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، الفصل الثاني من الباب الثالث، ص286 وما بعدها.

5 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، تقديم ميخائيل نعيمة، ص286.

فالخيال إذن له مقاييسه الخفية، وبراهينه غير المحسوسة، وقدرات تجعله أقدر من براهين العقل و مقاييسه على النفاذ إلى أعماق الأشياء، والإلمام بحدود المعرفة، وبدهي أن هذا الاعتداد بالخيال الذي يخلف المنطق وراءه، يستهين بالعالم الحسي، وحدوده الزمانية والمكانية، ويتصور الوجود مجتمعاً في ومضة فكرة خاطفة، ولمحة خيال تصله من أطرافه... وهكذا كان الوجود فيما يرى جبران، فإذا أضفنا إلى هذا الاعتداد بالخيال اعتداد جبران بالإنسان المتفرد الذي لم يكن غير (جبران) نفسه، وأن جبران قد وضع الوجود أمامه وجهًا لوجه، و عدَّ نفسه مقياس الحقيقة من ناحية، وذروة الوجود، وأرفع مخلوقاته من ناحية أخرى، وأن كل ما في الوجود كائن فيه وبهو له، وأن كل ما في عالمه الداخلي هو الموجود في الخارج، (ويستطيع كل إنسان أن يتشوق ثم يتشوق حتى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن نفسه، فيشاهد إذ ذاك ذاته ومن يرى جوهر الحياة المجرد، فكل ذات هي جوهر الحياة المجرد)⁽¹⁾.

هكذا يتعانق الإنسان والكون - في نظر جبران- في وحدة حميمية، يستحيل معها فناء الإنسان، كما يستحيل فناء الوجود، لأن (كل موجود باقٍ، ووجود الوجود دليل على بقائه)⁽²⁾:

وَأَمَاتَ سَعْدٌ وَرُوحُ الشَّعْبِ بَاقِيَةٌ	وَالرَّأْيُ مُؤْتَلَفٌ وَالشَّمْلُ مُلْتَمِّمٌ
وَالرَّمْزُ بَاقٍ وَذَلِكَ الصَّوْتُ نَسْمَعُهُ	مَهْمَا تَنَوَّعَتِ الأصْوَاتُ وَالكَلْمُ
إِنْ اتَّحَادَ قُؤَاكِمُ بَعْدَهُ عَوْضٌ	مِمَّنْ دَهَى مِصْرَ فِيهِ الثَّكْلُ وَالْيَتَمُّ
وَالْبُرِّ مِنْكُمْ بِهِ بَرٌّ بِأَنْفُسِكُمْ	إِمَّا الوجودُ بِمعناهُ أَوْ العَدَمُ ⁽³⁾

إن فكر جبران الذي أثرته الغربية والحب بالدرجة الأولى اتسم بتعظيم الحب وبالإيمان بوحدة الوجود وبعضمة الإنسان، كما أحب جبران الطبيعة والجمال وهذا طبيعي كونه رسامًا من جهة وكونه يؤمن بوحدة الوجود من جهة أخرى.

وبما أنه أخذ فكرة وحدة الوجود عن الديانات الشرقية وعن التصوف الإسلامي، فإننا نلتبس من فكر جبران أنه يؤمن بشكل ما بالله و ربما بشكل مختلف عن مفهوم الإله للديانات التقليدية؛ فهو يؤمن بأن الله هو الذات العظيمة للبشر جميعًا ويسميتها هو بالإنجليزية

1 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، تقديم ميخائيل نعيمة، ص278.

2 - السابق، ص283.

3 - جبران خليل جبران، من قصيدة (لينتشر بعد طي ذلك العلم)، موقع: (ABGAD) (موسوعة الأدب العربي).

"GOD-self" وأن كل شيء قائم على الحب، وهذا حال بعض من يؤمن بوحدة الوجود أنهم يرون الله والطبيعة والروح وذات الإنسان مندمجة في وحدة واحدة؛ أي إن الذات الإلهية ومخلوقاتهما هي وحدة واحدة، وليس كل من يقول بوحدة الوجود لديه هذا الرأي طبعاً فبعضهم يرى وحدة الوجود بطريقة مختلفة، (و وحدة الوجود هي الوحدة التامة بين الإنسان والحيوان والنبات والحجر، التوحيد بين الموت والحياة الجماعي والفردي)⁽¹⁾.

وهو متأثر بالشاعر الانجليزي (وليم بليك) الذي يقول في قصيدة (الخلود):

إِنَّ مَنْ يَلُوي فَرَحًا نَحْوَ نَفْسِهِ
يَحْطِمُ الْحَيَاةَ الْمُجَنَّحَةَ؛
لَكِنْ مَنْ يَقْبَلُ الْفَرَحَ وَهُوَ يَطِيرُ
يَعِيشُ فِي ظِلَّةِ شَمْسِ الْخُلُودِ⁽²⁾

(والوجود عند جبران يمتد إلى أعماق من مفهومه، فهو قائم بصرف النظر عن صورته، والأرواح عنده تتناسخ، وفكرة الموت تعني الانتقال لا العدم)⁽³⁾.

نقول بلسان جبران إن كل موجود باق ما بقيت الرسالة الجبرانية، أما دليل بقاء الموجود المتمثل بوجودك فهو المعنى المعطى، لولا الفكرة، والمفهوم، وبشكل أدق المعنى، لما كان العالم موجوداً، ولما علم العالم أنه موجود أو غير موجود، إن المعنى كيان أزلي أبدي خالد لا يتغير إلا ليتجهر، ولا يختفي إلا ليظهر بصورة أسنى، ولا ينام إلا ليحلم بيقظة أبهى. إن الذهنية المجردة المعطاة في صيغة اتصال محكم لا ثغرة فيه ولا غياب له قادرة على إضفاء المعنى، فيقول في (المواكب):

أَعْطَيْتِ النَّايَ وَغَنِّ
وَأَنْيْنَ النَّايَ يَبْقَى
هَلْ اتَّخَذْتَ الْعَابَ مِثْلِي
فَتَتَّبَعَتِ السَّوَاقي
فَأَلْغَيْتِ سُرَّ الْخُلُودِ
بَعْدَ أَنْ يَفْنَى الْوُجُودُ
مَنْزَلاً دُونَ الْقُصُورِ
وَتَسَلَّقتِ الصَّخُورُ⁽⁴⁾

1 - ERNST FISHER, The Necessity Of Art, (Tr. By Anna Bostock), P39, Polican, London, 1963.
2 - كما ورد في وليم بليك، تأليف د. ج. كلم، ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة، ص42، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982.
3 - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص290.
4 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، من قصيدة (المواكب)، تقديم ميخائيل نعيمة، ص363.

إن حديث جبران في (المواكب) يتردد فيه ذكر الأنين، حتى صار القارئ لا يذكر (المواكب) إلا يذكر الناي ولا يذكر الناي إلا ومعه الأنين، فيتصل الحديث عن الناي في شعره بالحديث عن البقاء والخلود (وأنين الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود)⁽¹⁾ ويرى أن ما يمتاز به من الناس هو أفضل ما في الوجود:

وَأَفْضَلُ الْعِلْمِ حُلْمٌ إِنْ ظَفَرَتْ بِهِ	وَسِرَّتْ مَا بَيْنَ أُنْبَاءِ الْكَرَى سَخْرُؤًا
فَإِنْ رَأَيْتَ أَخَا الْأَحْلَامِ مُنْفَرِدًا	عَنْ قَوْمِهِ وَهُوَ مَنبُودٌ وَ مُحْتَقَرٌ
فَهُوَ النَّبِيُّ وَ بُرْدُ الْعَدِ يَحْجِبُهُ	عَنْ أَمِّهِ بِرِدَاءِ الْأَمْسِ تَأْتِرُ
وَ هُوَ الْغَرِيبُ عَنِ الدُّنْيَا وَ سَاكِنُهَا	وَ هُوَ الْمَجَاهِرُ لِأَمِّ النَّاسِ أَوْ عَدْرُوا
وَ هُوَ الشَّدِيدُ وَإِنْ أَبَدَى مَلَائِنَهُ	وَ هُوَ الْبَعِيدُ تَدَانَى النَّاسِ أَمْ هَجَرُوا ⁽²⁾

وقصيدة المواكب كما يفهم من ظاهرها قصيدة اجتماعية، ولكن حينما نتأملها ونعرف رسالة جبران نصل إلى عمقها الحقيقي وهو التأمل في الوجود، (والمعنى الحقيقي يأتي على لسان الشيخ في صورة هتاف اليأس من حياة المدينة والمعنى الحقيقي العميق يتغلغل في روح الفتى العاري الخارج من الغاب يعزف على نايه... فهو يرمز إلى وجه الوجود المتجرد من كل الأفتعة التي تكشف عن سر المعرفة الحقيقية)⁽³⁾.

و نرى أن جبران في قصيدة يانفس يبرز تلك الثنائية -الحياة والموت- بشقيها الفاني الزائل والخاضع، يقول:

يَا نَفْسُ مَا الْعَيْشُ سِوَى	لَيْلٍ إِذْ جَنَّ انْتَهَى
بِالْفَجْرِ وَ الْفَجْرِ يَدُومُ	
يَا نَفْسُ إِنْ قَالَ الْجَهْلُ	الرُّوحُ كَالْجَسْمِ تَزُولُ
	وَمَا يَزُولُ لَا يَعُودُ
قُولِي لَهُ: إِنَّ الزُّهُورَ	تَمْضِي وَلَكِنَّ الْبُذُورَ

1 - الرومنطيقية ومنابع الحدائث في الشعر العربي (الرابطة القلمية نموذجًا)، محمد قوبعة، ص436، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، الطبعة الثانية، جامعة المنوبة، 2011.
2 - المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران، من قصيدة (المواكب)، قدم لها ميخائيل نعيمة، ص356، 357.
3 - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص 304.

تَبَقَى، وَذَا كُنْهُ الْخُلُودُ(1)

هنا نرى رغبة الشاعر في قهر فعل الزمن والتغلب على ديمومة الخلود ومعانقته، ولا يخفى ما في ذلك من التماهي، تماهي الشاعر (وهو الكون الأصغر) بما قد لمس في الكون الأكبر من مظاهر التجدد ينفي العدم، كما لا يخفى علينا ما في تشبيهه العيش بالليل من إشارات واضحة إلى ما يرمز إليه الليل من تدهور، حيث تنتهي دورة الليل بالفجر وكذلك دورة الموت والانبعاث، موت العارض الزائل وبقاء الجوهر الخالد ليبعث الحياة من جديد(2). وأحياناً يعبر جبران بالرمز عن أحاسيسه ومواقفه وفلسفته الوجودية، فالشجرة (التائئة) رمز بها إلى الإنسان والوجود(3)، لكن في كتاب النبي يفسر (مظاهر الوجود ويعلن موقفه حيث يتكلم عن الأشياء التي توطد علاقة الإنسان بالإنسان)(4)، فنراه يقول:

الْوَدَاعُ...الْوَدَاعُ
يَا أَبْنَاءَ أَوْرَفْلَيْسِ
قَدْ غَرِبَتْ شَمْسُ هَذَا الْيَوْمِ
وَأَغْلَقَ عَلَيْنَا أَبْوَابَهُ كَمَا تَغْلِقُ زُنْبُقَةُ الْعُورِ أَوْرَاقَهَا
عَلَى غَدِهَا
فَكُلُّ مَا أُعْطِينَاهَا هَا هُنَا سَنَحْتَفِظُ بِهِ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَافِيًا
لِسِدِّ حَاجَاتِنَا
فَإِنَّا سَنَاتِي ثَانِيَةً إِلَى هَذَا الْمَكَانِ وَنَمُدُّ أَيْدِينَا.
مَعَا لِمَنْ أُعْطَانَا
وَلَا تَنْسُوا أَنَّنِي سَأَتِي إِلَيْكُمْ مَرَّةً أُخْرَى
فَلَنْ يَمُرَ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى يَشْرَعَ حَنِينِي
فِي جَمْعِ الطِّينِ وَالزَّبْدِ لِجَسَدٍ آخَرَ

1 - جبران خليل جبران، الأعمال الكاملة، البدائع والطرائف، من قصيدة (يانفس)، ص198، تقديم كرم الدكروزي، دار العلم والمعرفة- مصر، 2011.

2 - ينظر الرومنطيقية، محمد قوبعة، ص451.

3 - الرومنطيقية العربية، الشاذلي الفلاح، ص84، دار صامد للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى، تونس، 2006.

4 - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص191.

قَلِيلًا وَ لَا تَرَوْنِي ... وَقَلِيلًا تَرَوْنِي
لأن امرأة أخرى ستلدني
فالحياة تنتهي لتعود في صورة أخرى و ربما يتشكل الإنسان فيكون زهرة.

الوداع ...

يا شعب أورفليس، إني أمضي مع الريح، و لكني لا أهبط إلى مهاوي العدم⁽¹⁾

كذلك يقول جبران في كتابه أرباب الأرض:

(ألا ما أضجر رُوجي بكل ما هو موجود.
لن أحرّك ساكنًا لخلق عالم أو لمحو آخر.
لو كنت أملك الموت ما رضيت الحياة،
فعبء الدهور يُثقل كاهلي،
و ولولة البحار التي لا تنقطع تزعج عُفوتي.
لو أنني تحللت من الغاية البدائية،
وتلاشيت كشعاع الشمس المبدد
لو أنني خلعت عن ربوبيتي هدفها ولفطت خلودي في الفضاء،
فلم أك شيئاً؛
لو أنني فنيت و خرجت عن ذاكرة الزمان،
إلى حواء اللاوجود!⁽²⁾)

أستطيع القول بأن جبران شاعر أكثر من كونه فيلسوف، فهو لم يحاول أن يبرر أو يحلل أفكاره وإنما نقل وجدانه بأسلوب تصويري جميل.

1 - النبي، جبران خليل جبران، ص92، ترجمة د. ثروت عكاشة، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة، القاهرة، 2014.
2 - أرباب الأرض، جبران خليل جبران، ص15، 14، ترجمة د. ثروت عكاشة، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1999.

(وهنا قد امتحن بألوان من الصراع الخفي الذي يدور في النفس الإنسانية، وما قصدناه هنا الصراع بين الوجود والعدم إذ برز نوع من الجدل يمكن تسميته بالملحمة الشعرية)⁽¹⁾.

وإن ما جاء به من أفكار في كتاب أرباب الأرض ربما لم تكن جديدة في كثير منها فقد قالها قبله كثيرون حول مصير الإنسانية، إلا أن ما يميز جبران بالنسبة إلي هو الطريقة التي صاغ بها أفكاره والأسلوب النابض بالحب الذي كتب به عباراته.

والوجود في رأي جبران لا يفنى وإنما ينتقل من صورة إلى صورة أخرى فهو يقول: (ما كانت حياتنا هباء، لو لم تشيد البروج من عظامنا).⁽²⁾

وامتداداً للبحث عن حقيقة الوجود، يتفق جبران مع داروين في نظريته (النشوء والارتقاء) وهي نظرية تنادي بتطور الحياة وأن أصلها واحد... وكان الإنسان هو قمة هذا التطور وصورته المثلى، وقد ظل داروين من عام 1831م إلى 1859م يتجول على ظهر الباخرة بيجل حول العالم يجمع الملاحظات، وقد رأى أن الحياة تتلون وتتكيف وتغير من تكوينها لتتلاءم مع بيئتها على الدوام⁽³⁾.

لكن الوحدة الصميمة بين الإنسان والكون، التي يعطيها (الوجود) حقها السرمدى في البقاء، تصطدم في مجال الحس بتجربته، التي تشبه (الفقد) وتشبه (العدم) وتشبه (النهاية)، وهذه التجربة هي (الموت) الذي لا يخدم فكرة الاستمرار في الوجود عند جبران، لأنه يرى في كل نهاية بداية جديدة، وهذا نفس ما نجده عند نعيمة، فاللحد عنده مهد الحياة:

وَعِنْدَمَا الْمَوْتُ يَدْنُو وَاللَّحْدُ يَفْغُرُ فَاهُ
أَغْمَضُ جُفُونَكَ تُبْصِرُ فِي اللَّحْدِ مَهْدَ الْحَيَاةِ⁽⁴⁾

وهنا نلتقي مع فكرة البعث التي أكدتها الأديان السماوية، فليست الحياة الدنيا هي الوحيدة للكائن الحي، فهناك حياة أخرى، هي مجال الثواب أو العقاب على ما قدمه الإنسان من خيرٍ أو شرٍ في هذه الحياة الدنيا، فليس الموت (عدمًا) ولكنه تمهيد للحياة الأخرى التي لا يشوبها (عدم).

1 - أرباب الأرض، جبران خليل جبران، ترجمة د. ثروت عكاشة، مقدمة الكتاب، ص13.
2 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، (رمل وزبد) تقديم ميخائيل نعيمة، ص122.
3 - ينظر أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص310.
4 - همس الجفون، من قصيدة (اغمض جفونك تُبصر)، ميخائيل نعيمة، ص8.

(لكن المقصود هنا ليس فكرة البعث التي نراها عند الأديان السماوية، بل إن كلاً من جبران ونعيمة من المؤمنين بتناسخ الأرواح، فقد نظرا إلى الموت لابوصفه عدماً وفناءً وإنما بوصفه بداية جديدة، وهما في ذلك لايعنيان الخلود الذي تعنيه الأديان السماوية، فخلود الإنسان - في نظرهما - يظل على هذه الأرض، حيث تتجدد الحياة عليها⁽¹⁾.
وأيضاً يلتقي عند ميخائيل نعيمة الماضي بالحاضر بالغد في صورة السنة المقبلة التي تختفي فيها الأزمان والآماد والناس في أسرارها حائرون⁽²⁾، يقول: إلى سنة مقبلة.

مَا أَنْتِ فِي سَفْرِ الزَّمَانِ الْعَظِيمِ
إِلَّا صَدَى الْمَاضِي وَصَوْتِ الْغَدِ
فِيكَ اسْتَوَى مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوَلِّدِي
قَطْبًا حَيَاةً نَحْنُ فِيهَا نَهِيئُ
لَا جُوعَهَا يَشْبَعُ
لَا مَوْتُهَا يَهْجَشُ
لَا طَامِعٌ يَقْتَنِعُ
فِيهَا وَلَا الزَّاهِدُونَ
النَّاسُ فِي أَسْرَارِهَا حَائِرُونَ
وَالسِّرُّ، لَوْ يَدْرُونَ، فِيهَا مُقِيمٌ⁽³⁾

تقول الدكتورة نادرة جميلة السراج : (ميخائيل نعيمة الشاعر الفيلسوف يعتقد بتناسخ الأرواح كزميله جبران، ويصر في كتاب من كتبه باعتقاده بنظرية التقمص التي تشبه التناسخ في عموميتها)⁽⁴⁾.
أما الدكتور عيسى الناعوري فيقول في كتابه المهجريات: (ومن شاء أن يعرف خلاصة فلسفة نعيمة في الحياة والوجود التي نثرها في جميع أعماله الأدبية فنرى أنه قد تأثر بـ جبران في الإيمان بـ وحدة الوجود والتناسخ)⁽⁵⁾.

1 - التجديد في شعر المهجر، د.أنس داود، ص83.
2 - ينظر أدب المهجر، د. صابر عبد الدايم، ص310.
3 - همس الجفون، من قصيدة (إلى سنة مقبلة)، ميخائيل نعيمة، ص25.
4 - شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة السراج، ص125.
5 - مهجريات، د. عيسى الناعوري، ص89، دار الكتب العربية، ب. ط، ليبيا، 1990.

ميخائيل نعيمة يفلسف الأشياء ويخضعها لناموس الحياة والموت، وكأنها كائن حي، أو هي كذلك، تمر عليها قصة الوجود كما تمر على الإنسان، تعيش الحاضر والماضي وتنحني للأقدار، إنها سنة كل المخلوقات أنهم يعودون من حيث أتوا، من التراب إلى تراب(1):

عُودِي إِلَى حُضْنِ الثَّرَى
وَجَدِّدِي الْعُهُودُ
وَأَنْسِي جَمَالًا قَدْ ذُوِيَ
مَا كَانَ لَنْ يَنْ يَعُودُ
كَمْ أَزْهَرَتْ مِنْ قَبْلِكَ
وَكَمْ ذُوَتْ وَرُودُ
فَلَا تَخَافِي مَا جَرَى
وَلَا تَلُومِي الْقَدْرَا
مَنْ قَدْ أَضَاعَ جَوْهَرَا
يَلْقَاهُ فِي اللَّحُودِ
عُودِي إِلَى حُضْنِ الثَّرَى (2)

(هنا يحس القارئ بأن الشاعر يبكي الورقة ومصيرها - وهو مصير الإنسان نفسه- بدموع تتساقط من قلبه ولسانه، ويحدّثها بنبرة مختنقة، أن تنتشج و تتجلد، وتواجه مصيرها بقلب قوي، فإن من يضيع جوهرًا لا بد أن يبحث عنه في باطن الأرض). (3)

وفي مكانٍ آخر يعرض مسألة الحياة والنفس متسائلًا عن نفسه وماهيتها وطرق مجيئها، فهو حائر ويتساءل عارضًا عددًا من الاحتمالات، وهذه التساؤلات جزء من علاقة الإنسان مع الحياة، (الإنسان فضولي ويريد أن يعرف كل شيء عن تفاصيل الخلق والوجود) (4):

هَلْ مِنْ الْأَمْوَاجِ جَنَّتِ؟

- 1 - ينظر موسوعة شعراء المهجر، د. حسن جعفر نورالدين، ج1، ص295
- 2 - همس الجفون، من قصيدة (أوراق الخريف)، ميخائيل نعيمة، ص48.
- 3 - الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. نجم يوسف، ص106.
- 4 - موسوعة شعراء المهجر، د. حسن جعفر نورالدين، ج1، ص297.

هَلْ مِنَ الْبَرْقِ انْفَصَلْتِ؟
أَمْ مَعَ الرَّعْدِ انْحَدَرْتِ
هَلْ مِنَ السَّفْجْرِ انْبَثَقْتِ
هَلْ مِنَ الشَّمْسِ هَبَطْتِ؟
هَلْ مِنَ الْأَحْصَانِ أَنْتِ (1)

وفي ملامح التأملية الفلسفية المستغرقة في سر الوجود عبر القصيدة إلى M.D.B.

يقول:

أَنَا السِّرُّ الَّذِي اسْتَتَرَا
بِرُوحِكَ مِنْذُ مَا خَطَرَا
بِبَيِّالِ الْكَائِنِ الْأَعْلَى
خَيْالِ الْعَالَمِ الْأَدْنَى
فَصُورٌ مِنْ ثَرَىِّ بَشَرَا (2)

كل هذه التساؤلات تفصيل لماهية النفس، التي أفاض بها الله على الإنسان، والإنسان المغترب على الصعيد الميتافيزيقي هو الذي يفتقد فهم أمرين مهمين يتعلقان بالوجود الإنساني هما: معنى الحياة، والغاية من الحياة، فهو عاجز عن فهم معضلات الوجود الإنساني وغير قادر على إدراك مجموعة من الحقائق، فهذه الأمور تجعله يحس بالعجز. وتظهر آثار فلسفة البعث في أشعار أبي ماضي، فهو يخاطب زوجته (دوروثي) في قصيدته (الدمعة الخرساء) حين قالت: أنموت وتنقضي أحلامنا... في لحظة وإلى التراب نصير، يقول:

فَأَجَبْتُهَا: لَتَكُنْ لِدِيدَانِ الثَّرَى
فَإِذَا طَوَّتْنَا الْأَرْضَ عَنْ أَزْهَارِهَا
فَسَتَّرَجَعِينَ خَمِيلَةَ مُعْطَارَةَ
أَوْ جِدَلًا مُتْرَقِرًا مُتْرَنِمًا
أَجَسَّامُنَا إِنَّ الْجِسْمَ قُشُورُ
وَخَلَا الدُّجَى مَنَا وَفِيهِ بَدُورُ
أَنَا فِي ذُرَاهَا بُلْبُلٌ مَسْحُورُ
أَنَا فِيهِ مَوْجٌ ضَاكِحٌ وَخَرِيرُ

1 - همس الجفون، من قصيدة (من أنت يا نفسي)، ميخائيل نعيمة، ص 14.

2 - السابق، من قصيدة (إلى M.D.B.)، ص 101.

أَوْ تَرَجِّعِينَ فَرَّاشَةً خَطَّارَةً
أَوْ نَسَمَةً أَنَا هَمْسُهَا وَحَفِيفُهَا
أَوْ تَلْتَقِي عِنْدَ الْكُثِيبِ، عَلَى رِضَى
أَنَا فِي جَنَاحَيْهَا الضُّحَى الْمَوْشُورُ
أَبَدًا تُطَوِّفُ فِي الرَّبِيِّ وَتَدُورُ
وَقِنَاعَةً، صَفْصَافَةً وَ غَدِيرُ(1)

ومن الغريب أن أبا ماضي يعد هذه الفلسفة من باب الوهم والتخدير لمشاعر زوجته حتى لاتصدمها الحقيقة المرة حقيقة الموت و الفراق الأبدي، فبعد أن يمنيها بأنهما سيرجعان ويتقمصان الكائنات الطبيعية، يقول:

فَتَبَسَّمَتْ وَيَدُ الرِّضَا فِي وَجْهِهَا
عَالَجَتْهَا بِالرَّهْمِ وَهِيَ قَرِيرَةٌ
إِذ رَاقَهَا التَّمَثِيلُ وَ التَّصْوِيرُ
وَلَكُمْ أَفَادَ المَوْجِعِ التَّخْدِيرُ(2)

ينظر إيليا إلى الوجود نظرة كلية، ويندمج في مشاهدته الخارجية و يعبر المسافة التي تفصله عنه.. (لينقد صميم فكرته، ويتوصل إلى الأسرار الكامنة داخل الوجود)(3). وفي قصيدة الطلاس لإيليا أبو ماضي يصور حيرته أمام الكون وألغازه، ويكشف عن شعوره العميق بقصوره عن التغلغل في حقائق الأشياء واستجلاء صفاتها وعلاقاتها ومصدر وجودها، فأيليا في تأملاته وبتساؤلاته غير قادر على حل لغز الوجود، فقد استعصى ظاهر الكون على منطق عقله الإنساني المحدود معرفياً، وأصابته الحيرة ودهشة أمام متناقضات الوجود، فقد صب في هذه المطولة ذوب وجدانه وخلصه تجاربه، ومشاق رحلته الطويلة عبر آفاق الوجود، لكن ترى هل وصل إلى شاطئ المجهول؟ لا لم يصل! لأنه في النهاية يقول: لست أدري!(4) ويقف طويلاً أمام جدلية الوجود والعدم، يتعمق في فلسفة الحياة والموت، ليعبر عن شئنية الإنسان، عن لا جدواه في الوجود، فنراه يقول:

جُنْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَابَقِي مَاشِيًّا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتُ
كَيْفَ جُنْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي؟

1 - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الدمعة الخرساء)، ص 181.

2 - السابق، ص 182.

3 - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص 305.

4 - السابق، ص 316.

لَسْتُ أَدْرِي!

جِنْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيِّ—ن...
إِنِّي جِنْتُ وَأَمْضِي، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ
أَنَا لُغَزٌّ، وَ ذَهَابِي كَمَجِيئِي طُلْسَمٌ
وَ الَّذِي أَوْجَدَ هَذَا اللُّغَزَّ لُغَزُّ مُبْهَمٌ
لَا تُجَادِلْ.. الْحَجَى مَنْ قَالَ إِنِّي.....

لَسْتُ أَدْرِي!

أَجْدِيدٌ أَمْ قَدِيمٌ أَنَا فِي هَذَا الْوَجُودِ
هَلْ أَنَا حُرٌّ طَلِيقٌ أَمْ أَسِيرٌ فِي قَيْدِ
هَلْ أَنَا قَائِدٌ نَفْسِي فِي حَيَاتِي أَمْ مَقُودٌ
أَتَمَنَّى أَنِّي أَدْرِي وَلَكِنْ ...

لَسْتُ أَدْرِي!

وَلَقَدْ قُلْتُ لِنَفْسِي وَأَنَا بَيْنَ الْمَقَابِرِ
هَلْ رَأَيْتِ الْأَمْنَ وَالرَّاحَةَ إِلَّا فِي الْحَفَائِرِ
فَأَشَارَتْ.. فَأَذَا لِلدُّودِ عَيْشٌ فِي الْمَحَاجِرِ
ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا السَّائِلُ.. إِنِّي:

لَسْتُ أَدْرِي! (1)

إن هذه اللأدرية ظلت سيدة الموقف، وبقي الشاعر تائها ضائعاً حائرًا في سر الوجود، وهكذا وجد نفسه محبوسًا في إطار المجهول والغربة إذ إنه لا يعلم أي شيء عن أي شيء، فهو لغز الوجود، ولذلك لا جدوى من التساؤل، فذو الحجى من قال لا أعلم، لقد وقف إيليا أبو ماضي في ميدان الوجود.

1 - الجدول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الطلاسم)، ص 161-177.

يقول الدكتور عيسى الناعوري: (هذه المطولة -الطلاسـم- هي مجموعة تأملات متطلعة للبحث عن الحقيقة يرسلها لايقنع بالوقوف عند الظواهر والقشور بل يحاول التغلغل إلى الأعماق)⁽¹⁾.

أما الدكتور محمد عبدالغني خفاجي فيقول: (إن إيليا أبو ماضي وقع في مغالطات فكرية في طلاسـمه وقال لقد انسرب خيال الشاعر في أودية الظنون، وعلل الموت بتعللات لا يجد العقل المؤمن لها مساعاً، وتناسى أن الموت تشذيب لشجرة الإنسانية فلا فضل للدعارة ولا ذنب للطهارة وإنما هي النهاية للبشرية ماصحح وما طلح)⁽²⁾.

وقال الدكتور محمد مصطفى هدارة في كتابه دراسات في الأدب العربي الحديث: (هذه اللأدرية،.... وهو في ذلك يتابع الفلاسفة الأقدمين الذين كانوا يبحثون عن معاني حوادث الوجود، فكان لابد لهم أن يتوقفوا طويلاً عند كل أمر له صلة بتاريخ الإنسانية، ليستشفوا العلاقة بين الحوادث وبين الغاية الأساسية للوجود،...وهي التي كان ينشدها ويسعى وراءها إيليا في الطلاسـم)⁽³⁾.

ويشير الدكتور صابر عبدالدايم إلى أن أبا ماضي (لم يتبع في مذهبه خطأً فكرياً له معالمه المحددة بحيث يستطيع أن يشير إلى أن مذهبه ديكراتي أو وجودي، ولكنها انفعالات طارئة يحسها الشاعر من أن لآخر ويعبر عنها بصدق الشاعر وإحساس الفنان)⁽⁴⁾. وأنا أذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور صابر عبدالدايم من أن مطولة الطلاسـم ليست إلا تعبيراً صادقاً نابعاً من أعماقه، بحيث إنه بهر بما حوله، وتأمل في كل شيء، فهو يطوف وينتهي بـ(لست أدري!).

وقد اكتنف إيليا أبو ماضي الظلمة وهو يحاول أن يبحث مكانته في الوجود حيث يقول في ديوانه الخمائيل:

وَمَا هُوَ شَأْنِي وَ مَا مَوْضِعِي؟
قَلِيلًا عَلَى ضِفَّةِ الْمَشْرِعِ

أَنَا، مَنْ أَنَا يَا تَرَى فِي الْوُجُودِ
أَنَا قَطْرَةٌ لَمَعَتْ الضُّحَى

1 - أدب المهجر، د. عيسى الناعوري، ص 282.
2 - الشعر العربي في المهجر، د. محمد عبدالغني حسن، مقدمة الكتاب، ص 14.
3 - دراسات في الأدب العربي الحديث، د. محمد مصطفى هدارة، ص 35.
4 - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص 322.

بني وطني من أنا في الوجودِ وَ مَاهُوَ شَأْنِي وَ مَا مَوْضِعِي؟(1)

وفي ديوان الجداول.. يبدأ من منطق الوحدة الكونية الشاملة، والمقاييس الزمانية وهو لا يقره ذوو النهى المفكرة المتأملة يقول:

هَيْهَاتَ مَا أَرْجُو وَلَا أَخْشَى غَدًا هَلْ أَرْتَجِي وَأَخْصَفُ مَا لَمْ يُوجَدْ
وَالْأَمْسُ فِي فَكَيْفٍ أَحْسَبُهُ أَنْتَهَى أَمَا رَأَيْتَ الْأَصْلَ فِي الْفَرْعِ النَّدِي
قَبْلَ كَبْعِدِ حَالَةٍ وَهِيَ مِيَّةٌ أَمْسِي أَنَا، يَوْمِي أَنَا، وَأَنَا غَدِي(2)

في المجهول لعله يجد إجابة لهذه (اللماذا الكبرى) وللأسئلة التي تلح عليه حتى يريح وجدانه لكن دون جدوى، فقد ظلت المأساة الوجودية تلتفه من كل جانب، وبقيت نفس الشاعر موزعة في متاهات الألبان الخالدة، في سر الحياة والموت وظلال فكره في هذه المتاهات التي يهتدي فيها إنسان بعقله ويظهر عجز المغترب وجوديًا عن إدراك معنى الحياة والغاية من الوجود فيها، ويجعل الجمال من داخل النفس مطمئنة(3).

ويقول الدكتور إحسان عباس حول هاتين البيتين أدناه: (لكن هذه الأبيات ليست الأبيات الرائعة التي يذكرها القارئ من شعر أبي ماضي بل أبيات خالدة في ذاكرة الأمة)(4):

لَا دُجَى يَكْرَهُ الْعَوَالِمَ وَالنَّاسَ سَ فَيَلْقِي عَلَى الْجَمِيعِ سُدُولًا
أَيْ هَذَا الشَّاكِي وَمَا بِكَ دَاءٌ كُنْ جَمِيلًا تَرَى الْوُجُودَ جَمِيلًا(5)

ويختلف المنحى الفكري لفلسفة الخلود عند إيليا أبو ماضي عن منحى الفلسفة التناسخية عند جبران ونعيمة، فإذا كان جبران ونعيمة قد آمنّا بثنوية الجسد و الروح قائلين بتناسخ الروح في أجسام متعددة، فإن إيليا أبو ماضي قد نظر إلى الإنسان على أنه وحدة واحدة لا تنقسم، فلا نفس ولا جسد، بل هو كيان حي متفاعل، (سيواجه مصيرًا واحدًا وهو الفناء في عناصر الوجود)(6).

1 - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (من أنا)، ص 388، 389.

2 - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الزمان)، ص 80.

3 - ينظر ديوان إيليا أبو ماضي، تقديم زهير ميرزا، ص 39.

4 - الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، د. إحسان عباس، ص 181.

5 - ديوان إيليا أبو ماضي، من قصيدة (فلسفة الحياة)، تقديم زهير ميرزا، ص 606.

6 - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 231.

وقد ارتفع في البرازيل صوت رومانتيكي رقيق نستشعر فيه الأحساس بوحدة الوجود، فالإنسان يندمج مع الطبيعة، فالشاعر القروي يبتدئ إحساسه بوحدة الوجود من خلال تعبيره عن تلك الرغبة التي تلح عليه، وتستبد بنفسه، وهي الرغبة في غمر الكون:

مَنْ لِنَفْسٍ تَوَدُّ لَوْ تَغْمُرُ الْكُوْنَ
نَ هِيَامًا بِحَسْنِهِ الْمَعْبُودُ
مَثَلُوا لِي هَذَا الْوَجُودَ بِشَيْءٍ
أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ ضَمَّ الْوَجُودِ

تَطْلُعُ الشَّمْسُ يَسْتَبِينِي بِهَا هَا
وَتَلُوحُ النُّجُومُ أُرْعَى سَنَاهَا
أَيُّ وَادٍ وَلَمْ أَسَامِرُ حَصَاهَا
وَهَضَابٍ وَلَمْ أَبَاكِرُ ذُرَاهَا
وَعُصُونٍ وَلَمْ أَعْرِدَ عَلَيْهَا
وَأُرُودٍ وَلَمْ أَمِصَّ جَنَاهَا

عَيْرَ أَنِي عُمَرِي قَصِيرٌ وَفِي الْكُونِ
فَنُونَ مِنْ كُلِّ حَسَنِ جَدِيدِ
مَثَلُوا لِي هَذَا الْوَجُودَ بِشَيْءٍ
إِنِّي أَشْتَهِي عِنَاقَ الْوَجُودِ!

يَا سُلَيْمِي! جَمَعْتَ حَسَنَ النَّهَارِ
وَالدُّجَى وَ السَّمَاءِ وَ الْأَقْمَارِ
وَرُبِّي وَ الْوَهَادِ وَ الْعُصْنِ وَ الزَّرِّ
هَرِ وَقَطِرِ النَّدَى وَ شَدْوِ الْكِنَارِ
فِيكَ مَعْنَى مِنْ كُلِّ مَا أَبْدَعَ الْبَبْ
سَارِي تَعَالَى، بَلْ فِيكَ مَعْنَى الْبَارِي

لَوْحَةَ الْمَرَصِدِ التِّي يَظْفِرُهَا
بِذَرَاعِيكَ طَوْقِي نِي أَطَوَّقُ
رَاوِدُ فِيهَا بِكُلِّ نَجْمٍ بَعِيدِ
بِذَرَاعِي كُلِّ هَذَا الْوَجُودِ! (1)

وتنتاب الحيرة الشاعر المهجري الجنوبي، وهو صوت الشاعر فوزي المعلوف، وقد آذاه عيشه بين الناس حتى أبدع شعراً يدور حول مصائب الحياة ثم الموت (2)، الذي يقول:

نَصِيْبِكَ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ مَصَائِبُهُ
تُسَرُّ بِمَوْلُودٍ وَتَأْسَى لِرَاحِلِ
وَدَاءٌ تُقَاسِيهِ وَمَوْتُ تُحَارِبُهُ
وَطَالَعَةُ رَهْنِ الْفَنَاءِ وَ غَارِبُهُ (3)

1 - ديوان القروي، رشيد سليم الخوري، من قصيدة عنق الوجود، ص712، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1973.
2 - ينظر الرومنطيقية، د. عيسى بلاطة، ص146.
3 - ديوان فوزي المعلوف، فوزي المعلوف، من قصيدة (خشوعاً أمام الموت)، ص48.

ولكن هل ترى أن التشاؤم علة غير إحساس فوزي الرقيق الذي صدمته شرور الإنسان، في شأن الحياة و الموت عبر توغل فلسفي تأملي في الوجود:

كَيْفَ جِئْنَا الدُّنْيَا؟ وَمِنْ أَيْنَ جِئْنَا؟ وَإِلَى أَيِّ عَالَمٍ سَأَوْفَ نُفْضِي؟
هَلْ حَيِينَا قَبْلَ الْوُجُودِ؟ وَهَلْ نُبْ عَثُ بَعْدَ الرَّدَى؟ وَفِي أَيِّ أَرْضٍ؟(1)

وفي شعلة العذاب يناقش فيها المشكلات الكونية، لكي يصل إلى الإجابات الشافية من إحساس بعبثية الوجود، (وفي النشيد الأول المعنون بـ(لغز الوجود) يتكلم عن تناقضات هذا الوجود وأسراره وتسري نظرتة المتشائمة في شرايين النشيد)(2)، يقول:

بُرْعَمُ الزَّهْرِ مَا وُجِدْتَ لِتَبْقَى
بَلْ لِيَمْضِيَ بِكَ الْخَرِيفُ
هَذِهِ حَالُنَا خُلِقْنَا لِنَشْقَى
وَلِتَقْضِيَ بِنَا الْحُتُوفُ

هُوَ كُنْهُ الْحَيَاةِ مَا زَالَ سِرًّا كُلُّ حُكْمٍ فِيهِ يَنْوُلُ لِنَقْضِ!
كَيْفَ أَجْلُو عَدِي؟ وَأَدْرِكُ أَمْسِي؟ وَأَنَا حِرْتُ كَيْفَ يَوْمِي سَيَمْضِي(3)

أما شفيق المعلوف فقد يبرز الصراع بين نزعتي الوجود والعدم ليأخذ منحىً درامياً محسوم النتيجة لصالح الموت وقوته القاهرة في شعره، فيأتي مشهد النهاية معلناً الهزيمة حيث تفشل جميع المحاولات اليائسة للتغلب على الموت:

فَشَخَّصَ النَّسْرَ بِعَيْنِيهِ
وَفَحَّصَ الصَّخْرَ بِظَفْرِيهِ
حَتَّى إِذَا اعْتَصَصَ عَلَى
تَفَرَّقَ الْحَصَا عَلَى
عَلَى جَنَاحِيهِ
مِنْ تَحْتِ رِجَالِيهِ(4)

1 - ديوان فوزي المعلوف، فوزي المعلوف ، من قصيدة (لغز الوجود)، ص74.

2 - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص315.

3 - ديوان فوزي المعلوف، من قصيدة لغز الوجود، ص74.

4 - عبقر، شفيق المعلوف، ص115.

هنا يظهر التشبث بالحياة يبرز الصراع بين نزعتي الوجود والعدم ليأخذ منحىً درامياً محسوم النتيجة.

وفي مكانٍ آخر يقول :

قُلْ لِلأَلَى يَزَخَرُفُ اللُحُودُ

ازمیلُ حَفَّارِهِمْ:

أرَوَا حُنَا تَبْنِي قِبَابَ الخُلُودُ

بِغَيْرِ أَحْجَارِهِمْ

وَتَحْدَجُ الوُجُودُ

بِغَيْرِ أَبْصَارِهِمْ⁽¹⁾

وهكذا مزج شعراء المهجر بين الشعر والفلسفة و وضعوا في عداد الشعراء المتأملين المفكرين، أمثال أبي العلاء المعري وابن سينا وابن الفارض من العرب، وكذلك تأثر جبران بفلاسفة الغرب ولاسيما (نيتشه) الذي غير مجرى حياة جبران، (خاصةً في كتابه) هكذا تكلم زرادشت) وهو الذي نسج على منواله كتابه (النبي) الذي وضعه بالإنجليزية⁽²⁾. ولعل الدكتور إحسان عباس والدكتور يوسف نجم قد شعرا بـ(أن الإيمان بالتجدد والعدم أو البعث في الدار الثانية، معناه كيفية تقبل النفس الإنسانية للموت، وقد استطاع المهجريون أن يقيموا لأنفسهم فلسفة تختار أحياناً التجدد والرجعة وأحياناً أخرى العدم)⁽³⁾. وقد أتفق مع الناقدین، على أن جبران وأصحابه كانوا على علم بفعل يتجسم في الموت والنهاية والفناء أيضاً، لكن جماعة الرابطة القلمية لم يهتموا بالعدم، بل اختاروه أحياناً، لكن البحث بصدد كل شعراء المهجر سواء كان المهجر الشمالي، أو المهجر الجنوبي، وليس الرابطة القلمية أو جبران فقط، فمثلاً فوزي المعلوف في موقفه من الوجود لا يمثل موقفاً فكرياً محدد المعالم كموقف جبران ونعيمة، وإنما موقفه من الوجود موقف الرفض، الذي ينظر إلى الوجود بمنظار أسود والوجود في نظره وهم في وهم، لذلك لا يصح القول بأن شعراء الأدب المهجري كانوا يختارون الوجود بوحدته وثنائيته.

1 - عبقر، شفيق المعلوف، ص110.

2 - شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة السراج، ص125.

3 - الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. يوسف نجم، ص116.

وأستطيع القول بأن موقف المهجريين من الوجود يتمثل في مجموعة من الحقائق،
منها الإيمان بوحداية الوجود عند جبران ونعيمة، والمبالغة في الوجود إلى حد التعظيم عند
إيليا أبو ماضي، ومنهم من اتسم موقفه بالعداء للوجود، وأوضح من يمثل هذا الإتجاه فوزي
المعلوف، كذلك التساؤل والحيرة والشك الدائم.